البدو والبادية لجبرائيل جبّور (*)

مراجعة سمير أبو حمدان

لا نعدو الحقيقة إذا اعتبرنا أن كتاب «البدو والبادية» لجبرائيل جبور هو عمل هام، ذو منحى وصفي وتاريخي يتناول البدو في صفاتهم وخصالهم وأماكن توزعهم ونمط عيشهم، ويتناول البادية في جغرافيتها وطبيعتها ومناخها وحيواناتها... وحشراتها. فالكتاب، على هذا الأساس، سفر لا غنى عنه لكل من يرغب في أن يملأ جعبته زاداً من المعلومات يجعله عارفاً بالبادية وأهلها، سواء أكان رحالة يريد الزيارة أم باحثاً يروم معرفةً أعمق وأشمل بأولئك القوم الذين ارتضوا لأنفسهم مقاماً هنيئاً بين المضارب، بالرغم من أن ثمة ضيفاً ثقيلاً، متمثلاً بالتقنية الحديثة، راح يقتحم المواقد ذات الحجر والخَيَم المصنوعة من شَعر، ولكن دون أن يقول له أحدٌ: تفضَّل. فالبادية والتحديث نقيضان في المظهر والجوهر. ومن هنا أهمية الرحلة في ذلك (الكون) الخاص والمدهش الذي صنعه البدوُ لأنفسهم عبر حقب التاريخ. ولعلَّ أهم شيء نلتقي به في هذه الرحلة هو الفطرة. فنحن سنكون بإزاء فطرة على جميع الصُعد، من طريقة التفكير، إلى نمط العيش، إلى الزيّ والمأكل والمشرب، إلى تلك النظرة التي كوَّنها ذلك الراسخُ في البداوة حول العالم، وحول الآخر المغاير والمختلف.

(*) الدكتور جبرائيل جبور: البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨.

مع الدكتور جبرائيل جبور وكتابه الهام نحن في رحلة مع البـداوة. فهو يدعونا إلى مشاهدة (منظر) البداوة على حقيقته دون أن يطرح على هذا (المنظر) غلالةً من غموض، كما دَرَج على ذلك كتاب وباحثون ومستشرقون. فالبدويّ، كائن من لحم ودم وعظم، له طموحاته وأفكاره وأسلوبه في العيش... ومآربه! وهو لا يختلف عنا في شيء سوى رفضه لمنطق المدنية وأشيائها. ولسنا نقدر على ملامته لأنه قد يكون على حق.

المعنى السياسي

في كتاب «البدو والبادية» ينطلق الدكتور جبور من البحث في أصل الكلمة ليجد بعد حين أنه في جذر (بدو) حيث يقال: «بدا القوم بَدْواً»، أي خرجوا إلى البادية. وفي الحديث الشريف أن «من بدا جفا»، ويعني ذلك أن البدوي، مثله مثل الأعرابي، على شيء من الجفاء والخشونة. وتبدَّى الرجل أقام في البادية وصار من أهلها، وتبادى تشبه بأهلها وسار على منوالهم عيشاً، وطريقةَ تفكير، وأسلوباً حياتياً «وتقتضي البداوة، أو العيش في البادية والإقامة فيها، كثيراً من التنقل من مكان إلى مكان وراء الماء والكلأ. وتقـوم حياة البـدو فيها عـلى تربيـة المواشي وحمايتها. وكانت تقوم في الأزمان السالفة على هذه الأمور وعلى الغزو والسلب» (ص٣٢). وإذ يعتـبر المؤلف أن ثمة خصـائص ومميزات تسِم البـدوي وتجعله خلاف الحضري ونقيضه يذهب إلى القول بأن ثمة ما يفرق أيضـاً بين بـدويٍّ وآخر. فهناك بدوُ الإبل وبدو الشياه (جمع شاة). فـإذا كان البـدو، أصحاب الإبل، يذهبون بعيداً إلى عمق البادية بحثاً عن (النجعة) البعيدة التي تحسِّن من إنتاج الإبل، فإن الآخرين، أصحاب الشياه، يـظلون على قُـرب من الأماكن المعمورة، وتحديداً على أطراف البادية، حيث هي الأماكن التي تؤثرها مواشيهم وتدرُّ فيها أكثر مما تدرُّ في (النجعات) البعيدة.

على أي حال فإن البداوة، مثلما هي اليوم، تندرج في أنواع ثلاثة: **نوع أول** راسخ في البداوة (وشفاؤه) منها يكاد يكون مستحيلاً؛ إنه النوع الذي يقف «في أسفل السلم» مثلما يرى المؤلف، حيث اقتصر معاشه على تربية الإبل، وهو عصبيّ، سريع التنقل في الصحراء بحثاً عما يسد رمقه ورمق إبله. ومما يلاحظه

أن البدو الذين ينخرطون في هذا النوع هم الذين يأنفون الخضوع للسلطة والنظام، مثلما يرفضون الحياة الحضرية إلا مرغمين. وقد تحدث عن هذا النوع من البدو عبد الرحمن ابن خلدون الذي اعتبر أن هؤلاء لا يمتازون بشيء قدر امتيازهم بطبيعتهم المتوحشة، وإنه ليصعب عليهم الخروج من «خشونة البداوة» والدخول في «رقة الحضارة». وقد رأى ابن خلدون إلى هؤلاء أنهم «أهل انتهاب وعبث، ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرّون إلى منتجعهم في القفر». وإذ اعتبر ابن خلدون أن ما يمتاز به هؤلاء البدو منافٍ للعمران والتحضر، لأنه لا يتسم بالاستقرار والمكوث في مكان واحد، قال «فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلُّب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران، ومنافٍ له». ويضيف ابن خلدون: «فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصب أثافي القِدْر (أي في صنع المواقد) فينقلونه من المباني، ويخربونها عليه ويعدّونه لذلك، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمّروا به خيامهم، ويتخذوا الأثاث منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافيةً للبناء الذي هو أصل العمران. هذا في حالهم على العموم، وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وإن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه».

النوع الثاني من البداوة يشمل أولئك الذين يقفون على الحدود المشتركة بين الحياة الراسخة في البداوة والحياة نصف البدوية. أصحاب هذا النوع هم البدو الذين يعتاشون من تربية الغنم والإبل معاً، كما أنهم يمتازون بترحال أقل من أصحاب النوع الأول.

أما النوع الثالث والأخير من البداوة فيتمثل في أولئك الذين تحولوا إلى (نصف بُداة) أو (نصف حضر). وهؤلاء يقوم معاشهم على تربية الماشية من غنم وماعز، وقليل من الإبل. وإذا كان ثمة ما يمتاز به أصحاب هذا النوع على النوعين الأولين، ففي أنهم وطَّدوا علاقتهم بأهل الحضر في المناطق المجاورة لهم. وإذ يلاحظ المؤلف أن البدو، في هذا النوع، راحوا يسيغون الحياة الحضرية

الناعمة، يذهب إلى القول إن معرفتهم أو معرفة بعضهم بالزراعة كانت سبباً رئيساً في (نصف تحضّرهم). وبسبب امتلاك هؤلاء الأراضي والآبار والعيون، فإنهم باتوا يفضلون أسلوب المكوث والاستقرار أو (السكون) بتعبير ابن خلدون. . . «ومن هذه الطبقة من البداوة تبدأ عملية التحضير الطبيعية» خاصة وأنهم أخذوا يجنحون إلى الدعة والسكون والترف الذي في الحضر، بل أخذوا بالفعل يحاولون الاندماج في الحياة الحضرية بحيث لا ينقضي جيلٌ أو جيلان «إلا وقد دخل أبناؤهم في الحضر وأصبحوا في عداد الحضريين».

العقلية البدوية

«للحياة العربية (المعاصرة) جذور قوية في البداوة». . . هذا ما يقرره الدكتور جبرائيل جبور لدى بحثه في أهمية البداوة من الناحيتين القومية والاجتماعية. فالعقلية الحضرية، وإن تزيَّت بأزياء من المدنية الحديثة، غير أنها شديدة الارتباط واللصوق بالعقلية البدوية. فجذورها هنا، في هذه البداوة، التي نحاول اليوم أن نتنصّل منها وأن ندرسها كظاهرة لا علاقة لنا بها. ولعلَّ مثل هذا المحظور وقع فيه كلٌّ من المفكر السياسي وعالم الاجتماع، عندما أكبَّ على دراسة الواقع العربي، والعقلية الجماعية السائدة فيه، دون أن يلتفتوا ولو قليلاً إلى الأساس البدوي، الذي تأسس عليه. فنحن، كما يرى جبور، لا نستطيع بلوغاً إلى فهم هذا الواقع الفهم الحقيقيّ، ما لم نتعرف أولاً إلى تلك الخصائص الثاوية في القلب من العقلية العربية، وهي التي تحدد سلوكاتنا ونظرتنا إلى الفرد والمجتمع والدولة والكون؛ وما لم نتعرف أيضاً إلى ما يمكن أن نطلق عليه (خصائص ومميزات) توجد في البادية وفي الحياة البدوية. . . «إن العربي، على رأي المؤلف، ليجهل نفسه وفهم خصائصه ومدى طاقته على التطور إن كان يجهل أن جذور حياته هي في البادية». ونهوضاً بالبرهان على مقولته هذه يعدّد جملةً من الظواهر التي تؤشر على رسوخ قدم البداوة في العقلية العربية. ومن هذه الظواهر الروح القبلية، والتكتل العائلي، والنزعة العشائرية، والأنانية الفردية، والمنازعات المستمرة في سبيل التزعم والترؤس وغير ذلك من أمور تتصل بالوجاهة! ولعلَّ هذه الظواهر، حسبما يخبرنا، ذات جذر ينتمي إلى حياة البداوة «كذلك يرجع الكثير

من العادات والأخلاق العربية إلى أصول معروفة مألوفة عند البدو ولا تزال مرعيةً حتى اليوم، ومنها قضايا الثأر والعرض والجيرة والفخر والذم والكرم وحماية الدخيل والفروسية والإقدام».

ومما يذكر هنا أن تسرُّب خصائص ومميزات الحياة البدوية إلى العقلية العربية كما نعرفها اليوم (وفي كلام المؤلف قدر من الغلوّ كما نرى) حصل نتيجة عملية الاندماج الحاصلة، وإن ببطء، بين أبناء البادية وأبناء الحضر المحيطين بهم. والبدو الذين انتقلوا إلى السكنى في قرى الحضر نقلوا إليها عاداتهم وأخلاقهم وأنماط عيشهم، كما نقلوا لهجتهم البدوية. ولئن كانت وجهة السير قد قضت حتى بالانتقال من «خشونة البداوة» إلى «رقة الحضارة»، فإن التأثير الحاصل حتى الآن من قبل هذا الرفد البدوي إلى الحياة الحضرية يشمل سائر نواحي المجتمع، من الزي، إلى اللهجة، إلى نمط العيش والتفكير.

وهنا يذكرنا المؤلف بأن عملية الاندماج بين البدو والحضر ليست جديدة في البقعة العربية ـ الإسلامية، بل إن جذورها تمتد إلى بداية الدعوة المحمدية. ومع أن الإسلام، في بَدْوته الأولى، لم ينظر إلى البدو (الأعراب) بشيء من التقدير والاستحسان، غير أن الخلفاء الراشدين وغيرهم من زعماء الأحزاب اعتمدوا في فتوحاتهم على البدو. كما تمَّ دمج بعضهم في الحياة المتحضرة، وكان أن شكَّل هؤلاء في فترات معينة من التاريخ الإسلامي عنصراً يُحْسب حسابه داخل الحياة السياسية والاجتماعية. وقد نُسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب أنه أوصى خلفه بالبدو (الأعراب) فقال: «أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله والمهاجرين الأوّلين، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام».

وبعد أن يصف لنا الدكتور جبرائيل جبور البادية بشجرها ونباتها، وحيوانها الداجن والمفترس، وطيورها وزحافاتها، وخيمة البدوي والمواد الداخلة في نسيجها، ينتقل للكلام على البدوي العربي وأهم العشائر التي ينتمي إليها. وفي هذا الصدد نرى أن تكون لنا وقفة مع المؤلف عند الأصل الأول للبدوي العربي. فهو ساميّ الأصل، جنسه أبيض، يتحدَّر من شمالي وجنوبي الجزيرة العربية وهو، على أساسٍ من ذلك، قحطانيّ وعدنانيّ في الوقت نفسه. وإذا كنا نرى اليوم أن

السُمرة اشتدت لدى البعض من قبائل البدو فذلك مرده ليس إلى البيئة كما يظن البعض وإنما إلى اختلاط العرب عامة، والبدو خاصة، بسواهم من أقوام أفريقيا وآسيا الشرقية. وقد تسرب دمٌ أجنبي، أفريقيّ على وجه التحديد، من الصومال والحبشة واريتريا والسودان ومصر والهند وباكستان، إلى الدم العربي، فاختلط به وشكّل عرقاً مختلفاً يتميز بسحنته الشديدة الحلْكة، «وقد لاحظ وليم شانكلن تسرب الدم الأجنبي في مضارب الشيوخ عند عرب الرَّوْلة من العبيد السود الذين كانوا بحوزتهم، وذلك حين كان يقوم بدرس أَقيسة جماجم بعض بدو الرولة ودرس دمائهم، ولاحظ البَون بين دماء البدو الخُلَّص ودماء أولئك الذين خالطهم دم أجنبي، عدا اختلاف اللون الذي لاحظه في سحَنِهم».

أما حيث امتنع الاختلاط في البيئات البدوية عند بعض بدو نجْد وبدو بادية الشام، فإن البشرة بيضاء حين لا تتعرض كثيراً للشمس «كما شَاهدت ـ يقول المؤلف ـ عند كثير من أبناء هذه القبائل وبناتها». ولم تفُت هذه الظاهرة بعض الرواد من الفرنجة الذين زاروا البادية الشامية ونجْد واحتكوا بأهلها عن كثب. فقد ذكر بركهارت عن امرأة بدوية عالجها من مرض ألمَّ بها، فقال: «إن جسمها لا يختلف في لون بشرته عن جسم أي إنكليزية أو غيرها من الأوروبيات». ويروي المؤلف أنه شاهد بنفسه فتاةً بدوية، من عرب «الحديديين» في مضرب على ضفاف البادية الشامية، لا تختلف في هيئتها وتقاسيم وجهها وشكل أنفها وعينيها عن أي فتاة أوروبية أو حتى اسكندنافية.

أما أشهر قبائل البدو اليوم، فيمكن أن نعددها، بحسب أهميتها، على الوجه التالي:

ـ قبيلة العمارات (من ضنا بشر)، موطنها على الحدود العراقية، وعليه نستطيع اعتبارها من قبائل البادية العراقية. منازلها تحتل رقعة واسعة من شواطىء الفرات شمالاً حتى النفوذ، وهي تبلغ أحياناً مناطق نائية نتيجة تنقّلها، وتزيد منازلها عن الخمسة آلاف بيت، وتملك قرابة العشرين ألفاً من الإبل والكثير من الخيل.

ـ السبعة (بتسكين السين): لها فروع كثيرة نزحت من شمالي الحجاز إلى البادية السورية في أوائل القرن التاسع عشر، وهي من أسبق القبائل التي نزحت باتجاه هذه البادية.

ـ الفدعان (من ضنا عبيد ابن بشر)، تقع في نحو أربعة آلاف بيت عدا البطون الأخرى. وقد ذكر «معجم القبائل» أن الفدعان مع توابعها تبلغ نحو ستة آلاف بيت، وتقع منازلها في وادي الفرات.

ـ الحسنة (من ضنا الحسين ابن المنبه من بني وهب من مسلم): ستمئة بيت، تنزل في ضواحي حمص قرب بحيرة قطينة، وقد جَنَح البعض منها إلى التحضُّر.

ـ الرولة (من الجلاس من مسلم)، وهي القبيلة التي دانت لها الزعامة بين القبائل في البادية الشامية وذلك لكثرة عشائرها وسطوة شيوخها. وكان لمشايخ الرولة حظْوة عند سلطات الانتداب، وقد تناول عدد من الكتّاب هذه القبيلة، فألّف آلوس موزل كتاباً اقتصر الحديث فيه على الرولة وعاداتها ورجالها. كما ألف وليم لانكستر كتاباً نُشر عام ١٩٨١ سمّاه «بدو الرولة اليوم».

وتلي هذه القبائل في الأهمية كلٌ من قبيلة «الحديديين» و«بنو خالد» و«الفواعرة» و«الموالي» و«بنو صخر» و«شمّر» و«العقيدات» و«وُلد علي».

النظام القبلي

إن المدماك الأول والأساس في النظام القبلي السائد في البادية هو العائلة أو «الحمولة» كما يطلق عليها البدو. وغاية الغايات عند البدوي أن تصبح لديه عائلة كبيرة، أو أسرة من أفراد عديدين، كي تتحول، من بعدُ، إلى فخذ فبطن فعشيرة فقبيلة. ولعلَّ ما يوحّد بين البدو ويجعلهم كالرزمة المتماسكة هو العصبية الناتجة من ارتباط بعضهم ببعض بوثائق النسب والدم.

وقد أصبح لهذه العصبية مدلول خلقي واجتماعي وسياسي وفلسفي لدرجة أن مجمل النظام القبلي السائد ارتكز عليه أي على هذا المدلول «وتقيَّدت أكثر

نُظُمهم الأخلاقية والأدبية والسياسية والاجتماعية بنظُم هذه العصبية وما تفرضه على الفرد والمجتمع». ونتيجة لهذه العصبية التي توثّق بين الجميع وتجعل من القبيلة أو العشيرة أو البطن أو الفخذ بمثابة الكتلة الواحدة المتراصّة، انتفت المصلحة الفردية وحلت محلها مصلحة الجماعة. وبهذا فإن الجماعة/القبيلة هي التي أصبحت مكلفةً بتحقيق مصلحة الفرد وتحقيق رغباته وطموحاته.

وفي المجتمع البدوي تتوزع القبائل المنازل، فلا تتعدى الواحدة منها منازل الأخرى، وإذا حصل مثل ذلك فلا مفر من القتال. فالقبيلة، وقد انتزعت منازلها بالقوة، يفترض أن تحافظ عليها بالقوة. وأقل ضعف يصيب القبيلة لا بد أن يعرِّض منازلها للخطر حيث تشاركها فيها قبيلة أخرى. ومن يمعن النظر في تاريخ البادية لا بد أن يشاهد كيف أن منازل القبائل لم تُكتَسَب بالشكل الرضائي وإنما انتُزعت انتزاعاً. أما عن الشكل الذي تتخذه مضاربهم حين ينزلون فالأغلب أن تكون صفوفاً، وكل صف يبتعد عن الآخر نحواً من ستين متراً إفساحاً في المجال أمام التجوال المريح للإبل بين الخيَم. وقد يبلغ حجم المخيم الواحد نحواً من ثلاثمئة خيمة إذا كانت المياه تكفي لمثل هذا العدد «وتتجه الخيام في الأغلب إلى الشرق مواجهةً الشمس عند (الرولة) وعند الكثيرين من حلفائهم، ولكن هناك قبائل من عنيزة توجّه خيامها إلى الشمال».

ولئن كان المجتمع البدوي قد أعطى الأب سلطة مطلقة على صعيد العائلة، إذ إن له الأمر وعلى غيره الطاعة، فإن المرأة في البيت البدوي حظيت ببعض (الحقوق) من الوجهة العملية. فإذا كان الرجل يعيِّن الموقع الذي يجب أن تُبنى عليه الخيمة، فإن مسؤولية البناء تقع على المرأة. فهي التي «تدق الأوتاد، وتربط إليها الأطناب، ثم تنشر الخيمة وترفعها على العمد، وهي التي تقوّضها حين يرتحل القوم، وهي التي تخيط الشقاق معاً لتصبح خيمة».

وللمرأة البدوية حقوق أخرى إذ يمكنها استقبال الضيف في غياب زوجها، إذ إنها ربة البيت في غيابه. ولها وحدها الحق في إطلاق الأسماء التي تريدها على أبنائها. ويتم اختيار الاسم وفق الظرف الذي يولد فيه الطفل، فيدعى (سهلاً) إذا جاءت ولادته سهلة، أو سُهيلاً إذا كان النجم سهيل طالعاً، أو مطراً إن كان

الطقس ماطراً، أو زعلاً إن كانت غاضبةً من زوجها!

البدو والقانون

إن أهل البادية لا يقرّون بأي قانون. فهُم فوق القانون، سواء أكان مستمداً من شريعة سماوية أو من الدساتير؛ أما القانون الذي يعترف به البدوي فهو المنسجم مع شريعته، أي شريعة العرف والعادة، وهي التي سار عليها مذ أَلِف البداوة. ومن حسن حظه أن الإسلام ـ كما يقول الدكتور جبور ـ نشأ في بيئة تعرف البداوة وتعرف مميزاتها وخصائصها فأقر الكثير من النظم والقوانين والأعراف المستمدة من الشريعة الإسلامية.

أما فيما خصَّ القضاة عند البدو فهم قوم يمتازون بنزاهتهم وترفعهم عن الغرض «وإذا أخطأوا رجعوا عن خطئهم». و(شريعة العرف والعادة) ليست بنفس القسوة التي تنص عليها (شرائع) الأقوام البدائية الأخرى. فالقاتل لا يُحكَم عليه بالقتل وإنما بدفع دية عظيمة، ومبدأ العين بالعين والسن بالسن (كما في الديانة الموسوية) لا يُعمل به عند البدو، وإنما بدفع دية (أو ثمن) للعين بدل العين وللسن بدل السن. على أنه في حالة القتل يحق لقريب المقتول، في ثورة الدم، أن ينتقم من القاتل أو ذويه «أو أن يعقر حلال القائل أو حلال أهله من خيل وإبل طيلة الأيام الثلاثة الأولى وثلث الرابع بعد حصول الجرم... ويعود هؤلاء فينتقمون! ومن هنا هذه الحزازات الدائمة بالنفوس وهذه الثارات التي يؤخذ بها، وهذه الحروب المتواصلة بين القبائل منذ وُجدت، وهذه النزعات للانتقام في سبيل الشرف والمكانة».

قبيلة صلَيب

وبعد أن يتحدث المؤلف عن (أخلاق البدوي وصفاته) حيث هو هادىء الطبع خلاف ما يزعم بعض الرحالة، مغامر، شجاع، منشأ على حب السلب والنهب والقيام بالغارات، وبعد أن يتحدث عن علاقته بالدين حيث هو، أو أغلبه، على دين الإسلام، ينتقل للحديث عن (قبيلة غريبة). إنها قبيلة صُلَيْب

التي تعتَبر من أَعرف القبائل ببوادي الجزيرة وأوديتها وغدرانها وحيوانها ونباتها وجبالها وهضابها.

إن قبيلة صليب أو الصلبة لا تعرف منازلها (ديرةً) واحدة، إذ إن ثمة فروعاً عدة لها تتوزع على أطراف بادية الشام في الشمال عند تدمر إلى الموصل، وفي النفوذ، ونجد، وأقصى الحجاز، والدهناء مما يلي الكويت والأحساء، إضافةً إلى بادية العراق.

وإذ حارَ الكثيرون في أصل هذه القبيلة من عرب ومستشرقين، أُطلق عليهم لقب (الخلاوية) نسبةً إلى إيثارهم حياة الخلاء، والنجعات البعيدة، وهناك من يسميهم (كلاب الخلاء). ولعلَّ أسبق من تحدث عن هذه القبيلة هو سليمان البستاني في «المقتطف» حيث اعتبرهم (بدو البدو) متحدثاً عن جذورهم الصليبية. فبدو القبيلة، على رأي البستاني، هم الصليبيون الذين توزعوا في عمق الصحراء بعد أن شتّتت شملهم القوات الأيوبية والمملوكية والتترية.

وفي «الموسوعة الإسلامية» ثمة رأي يقول إن صليب عرب يتبعون ديناً غير دين الإسلام في الأصل، وقد اعتنقوا الإسلام في زمن متأخر. ويخلص هذا الرأي إلى أن عادات صُلَيْب وأخلاقها وضعة مكانتها السياسية والاجتماعية تشير إلى أن أتباعها إنما هم ضحايا كارثة أو حرب قديمة ألمت بهم وأوصلتهم إلى ما هم عليه من ذلةٍ ومسكنة.

ولكن بعد هذا كله ثمة سؤال يراود الذهن، وهو: أيُّ موقع احتله البدو عبر التاريخ، وفي المدونات التاريخية؟

يرجح المؤلف أن القبائل البدوية العربية عرفتها بادية الشام والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية منذ ما يقارب الألف الثاني قبل الميلاد. فالكتاب المقدس يذكر أن العرب البُداة نزلوا في بادية الشام في عهد الملك داود وابنه سليمان، ما يعني أن وجودهم في تلك المناطق بدأ قبل الألف قبل الميلاد. وثمة ذكر لقبيلة (فيدار) وخيامها السود في (نشيد الأنشاد) حيث يقول سليمان على لسان فتاته: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام فيدار، كشقق سليمان».

ويمكن أن نعتبر ـ استناداً إلى المؤلف ـ أن أقدم الاشارات إلى البداة العرب، قبل أخبارهم في الكتاب المقدس، وردت في نقش للملك الآشوري شلمناصر الثالث الذي قاد في السنة السادسة لمُلْكه حملة على ملك دمشق الآرامي وحليفيه آخاب ملك إسرائيل وجندب أحد مشايخ العرب البدو، فاصطدم الجيشان في (قرقر) شمالي حماه عام ٨٥٣ق.م. وجاء في ذلك النقش: «قرقر عاصمة المملكة أنا خرَّبتها، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة، ١٢٠٠ فارس، ٢٠,٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب آرام (دمشق)، عشرة آلاف جمل لجندب العربي (شيخ البدو)، هؤلاء الملوك الإثنا عشر الذين استقدمهم لمعونته برزوا إلى المعركة والقتال... تألبوا عليّ...».

وفي الحقبة الجاهلية انتشرت القبائل البدوية في الجزيرة العربية. وقد ذكر الطبري في تاريخه كيف أن سابور ذي الأكتاف، ملك الفرس، عمل دائماً على رد الغزوات البدوية عن حدود مملكته، حيث يقول الطبري: «فسيَّر سابور الجيوش إليهم، وورد هجر وبها أَعراب تميم وبكر فأفشى فيهم القتل، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالرمال، ثم أتى اليمامة، فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا عوَّره، ولا جبٍ من جبابهم إلا طمَّه، ثم أتى قرب المدينة فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر، ثم عطف نحو بلاد بكر وتغْلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام فقتل من وجد بها من العرب وسبى وطمَّ مياههم».

وهذا يشير ـ على ما يرى الدكتور جبور ـ إلى وجود قبائل بدوية عربية في البادية السورية في تلك العهود قبل الميلاد وبعده.

ويلاحق المؤلف التواجد البدوي العربي في البادية السورية وغيرها عبر أطوار تاريخية متعددة، من العهود الإسلامية حتى العصر العباسي، إلى زمن الحملات الصليبية، وغزو التتر للبلاد الإسلامية، إلى عهد المماليك والعثمانيين، ليبدأ بعد ذلك حديثاً عن تطور الحياة البدوية في الأزمنة الحديثة.

وفي هذا الصدد يلحظ المؤلف الدكتور جبرائيل جبور أن السلطات في

أغلب الأقطار العربية، وحيث يتواجد البدو، أسهمت بسهم كبير في تيسير السبل أمام تحضير البدو، والانتقال بهم إلى الحياة الحضرية. وعلى الرغم من السياسات التي اتّبعتها بعض الحكومات العربية، والمتعلقة بتحضير البدو، فإن ثمة قبائل عدة لا تزال على فطرتها الأولى وتعيش في مناطق نائية من البوادي وليس بينها وبين المدنية أي علاقة أو اتصال. لكن ثمة مظاهر عدة، مثلما يلاحظ المؤلف، على أن تطوراً من نوع ما قد تمَّ على صعيد الحياة البدوية بينها انقطاع البدو عن المغازي، وتوقفهم عن العبث بالأمن ونهب الحجاج. وهنا يسجل الدكتور جبور للملك السعودي عبد العزيز آل سعود إسهامه في توطيد الأمن عبر مملكته، وحيلولته دون عبث القبائل النجدية وغيرها في شمال الجزيرة.

ومن مظاهر التطور أيضاً انخراط شباب البدو في الجندية وخدمة الدولة التي يتواجدون ضمن أراضيها وهم يسهمون في تثبيت الأمن عبر البادية. ومنها أيضاً استقرار بعض البدو في مزارع ونزولهم في بيوت من لبن وشجر الأمر الذي يجعلهم على شيء من الاستقرار والمكوث. وإلى ذلك يمكن أن نسجل اهتمام البدوي بأمور الصحة والمرض وإيمانه بالطب المعروف في الحواضر، وإلى غير ذلك من مظاهر التطور التي راحت (تغزو) الحياة البدوية، وتنقلها من طور إلى طور، منذ بداية هذا القرن.

وختاماً لحديثنا عن كتاب «البدو والبادية» للدكتور جبرائيل جبور نجد لزاماً القول بأن هذا الكتاب كناية عن سِفر ممتع حول البدو والبادية، عاداتٍ وطقوساً وأخلاقاً وأنماطَ عيشٍ وتفكير. وقد استطاع المؤلف أن يحيط بحياة البدو من جوانبها المختلفة، مقدماً إلينا كلَّ ما نحتاجه حول ما هم عليه البدو في بادية الشام. وعلى هذا يمكننا القول إن كتاب الدكتور جبور يجمع بين المتعة والإفادة، ومن رغب في نيْل الاثنتين فهما ملك يديه.